التصوف الاسلامى

بقلم سليمان فارس النابلسى

توطئة

يبدأ الدين فى أول أمره عقائد راسخة ومناسك ثابتة لا تسامح فى أوامره ولا هوادة فى نواهيه . ثم لا تلبث — بعد أن يتطاول الزمن وتمر السنون — أن تلين العريكة وتأخذ المياسرة مكان المعاسرة فيدب الشك الى العقائد الموروثة والسنن المرعية ؛ إذ ذاك يبحث الانسان عن عقيدة تسوّى مابين نفسه وبين الكون تسوية مقبولة يرتضيها العقل ويقرّها المنطق ، وعندئذ تنشأ الصوفية

والصوفية منحى فى الفكر ، لا بل فى الشعور يصعب تحديده ، يظهر فى محاولة العقل الانسانى تفهّم الطبيعة الروحية لحقيقة الأشياء ، ويبرز فى بِشر المرء وسروره بنعمة الارتباط الروحى مع الخالق العظيم

معنى لفظة صوفى

لقد تباينت الآراء وتضاربت الأهواء فى المصدر الذى اشتُقت منه لفظة صوفى ، فمن قائل إنها من الأصل اليونانى « سوف Sophos » بمعنى حكمة كما ذكر أبو الريحان البيرونى فى كتاب الهند ، ومن قائل — وهم الصوفيون أنفسهم — من صفا صفاءً . قال أبو الفتح البُستى

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا
قِدماً وظنوه مشتقاً من الصوفِ
ولست أبحل هذا الاسم غير فتىً
صافى فصوفى حتى لُقّب الصوفى

وذهب آخرون الى أنها متحدرة من معنى دينى ، فينسبونها الى أصحاب (الصفة) وهم قوم من الصحابة كانوا يجلسون على باب المسجد يوزعون الصدقات على الفقراء . على أن الرأى الأكثر شيوعاً والأقرب للعقل والمنطق هو نسبتها الى « صوف » أى الى ظاهر اللباس . فأبو نصر السراج مؤلف كتاب اللمع — وهو أول كتاب ظهر عن الصوفية — يقول : « إن لبسة الصوف دأب الأنبياء وشعار الأولياء ، فلما أضفتهم الى ظاهر اللبسة كان ذلك اسماً مجملاً عاماً . . . »

وقد أيد العلامة (نولدكه) هذه النظرية وشاركه فى الرأى العالم الانجليزى الشهير (برون Browne) وكان مما استدل به على ذلك الكلمة الفارسية (باشمينابوش) التى يسمون بها عادة ، ومعناها اللفظى (لابسو الصوف) وجيب الصوف كانت منذ القدم علامة الحياة البسيطة الساذجة

منشأ التصوف الاسلامى

يرجع بنا البحث عن منشأ التصوف الاسلامى الى الحركة الزهدية التى قامت فى القرن الأول للهجرة تحت التأثير النفسى العميق المتكشف عن خوف من الله تعالى يوجب التسليم لأرادته سبحانه والانقياد لمشيئته . وعلى هذا يجمل بنا أن نبحث التصوف فى طورين مختلفين

١ — *طور الزهد* : لم يكن التصوف فى هذا الطور نظاماً فلسفياً ولا مسلكاً دينياً وإنما هو طريقة فى الحياة والمعيشة خاصة ، تمتاز بالزهد فى الملذات والابتعاد عن الدنيا حباً فى الآخرة ، فهو إذن إسلامى خالص لا أثر للعوامل الخارجية والعناصر الأجنبية فيه من نصرانية ويهودية وهندية وفارسية . وكل ما هنالك أنه ظهر فى صدر العصر الأموى جماعة من المسلمين رغبوا عن هذه الحياة الاجتماعية الملأى بألوان اللهو والتهتك والخلاعة ، وتطلعوا إلى حياة هادئة وقورة مرضية لضمائرهم التى تتشوق إلى الابتعاد عن صغائر الحياة وسخافاتها مطابقة لعقائدهم التى ما زالت شديدة التمسك بالحياة الاسلامية الخالصة من بساطة وسذاجة . زد على ذلك أن الحياة السياسية كانت قلقة مضطربة ، فالفتنة قائمة بين الفرق والشيع ، والمعارك مستعرة بين مختلف القادة والأمراء ، كل ينشد جاه الحكم ومجد السلطان غير ملتفت إلى ما يجره ذلك من هدر دماء المسلمين وتشتيت كلمتهم ورجوعهم إلى جاهليتهم الأولى . كل هذه العوامل غذت الحركة الزهدية وبعثت فى قلوب بعض المؤمنين الميل عن المادة والانصراف إلى العمل الصالح فى نفسه وتذكير الناس بأمور دينهم وعقائدهم . ويأتى (نكلسون) العالم الانجليزى الضليع فى هذه الأبحاث فيضيف إلى هذه العوامل عاملاً آخر لا يقل عنها قوة وأثراً ، ذلك أن الصورة التى يبرزها القرآن الكريم (للحق) عز وجل هى فى نفسها تدعو إلى الخوف والرهبة ، فهى صورة إله جبار شديد البطش سريع العذاب . فالشعور بالخوف من جهنم الذى يكتنف قارئ القرآن يدعو حتماً إلى التصوف والزهد واحتقار المادة والابتعاد عن سبل الضلال

ومن أهم الشخصيات الممتازة فى هذا الدور الحسن البصرىّ الذى عُرف بالزهد والورع والرجوع إلى السنة فى بساطة العيش وسموّ الغاية . ومنهم أبوهاشم الكوفىّ الذى يقال إنه أول من أطلق عليه لقب « الصوفى » وأسس ديراً للمتصوفين فى رملة فلسطين . ثم ظهر ثلاثة نفر فيما وراء النهر فى فارس فى أواخر القرن الثانى الهجرى وهم : ابراهيم بن أدهم وشقيق البلخى وفضيل بن عياض ، فنرى عندهم بدء نظام فلسفى ، فهم يمثلون دور الانتقال من حياة الزهد إلى نظام التصوف الفلسفى ، ولعلّهم كانوا عاملين على الامتزاج بالتعاليم الهندية الفارسية لقرب موطنهم من هذه البلاد التى كانت تتفاعل فيها هذه المبادئ المختلفة . ويظهر ذلك بجلاء عند الزعيمة المتصوفة رابعة العدوية التى كانت كما يقول نكلسون أول من أدخل نظام الحب الفلسفى والوجد والاتحاد بالله بدل الخوف والرهبة

٢ الطور الثانى : التصوف الفلسفى

لقد أخذ التصوف فى هـــذا الطور شكلاً فلسفياً ونظاماً مستقراً فى الدين يميل العلماء إلى نسبته إلى عوامل خارجية من نظريات فلسفية وأديان أخرى . فمن ذلك :

ا — *المصدر الهندى* : يعتقد بعضهم أن لهذا التشابه بين كثير من العقائد الصوفية فى صورها الراقية الناضجة وبين بعض النظم الهندية وعلى الأخص ال Vandata أساساً واحداً ومنبعاً مشتركاً يجب أن يبحث عنه فى الهند ، فان معظم المتصوفة الأول نشأوا فى خراسان وظهرت فلسفتهم الصوفية فيها ؛ ولعل مبدأ الفناء الذى يندمج فيه المتصوف بالله ويفقد شخصيته الفردية ، مستمد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من عقيدة « النارفانا Narvana » الموجودة فى الديانة الهندية

ب — *المصدر النصرانى* : يعتقد المتصوفة أن غاية كل الأديان واحدة ، وأنها كلها تصل بالانسان الى الهدف المقصود والغاية المرجوّة ، فليس غريباً إذن أن يحتك المتصوفون بالرهبان المسيحيين ، ويمتزجوا بهم فيظهر أثر ذلك فى تعاليمهم وأنظمتهم ، خصوصاً وقد ظهرت هذه النزعة التنسكية الزهدية فى الكنيسة المسيحية فى القرنين الأول والثانى للهجرة

ج — *الافلوطونية الجديدة* : ظهر هذا النظام الفلسفى فى أوائل القرن الثالث المسيحى على يد (أمونياس ساكاس) وبلغ أوجه فى زمن تلميذيه بلاتينيوس وفرفوريوس النحوى شارح تعاليمه . وإذا ما دققنا فى تعاليم هذا المذهب الأدبية رأيناها تؤدى حتماً الى التصوف ، إذ يعلّم أن طريق الخلاص هو بالتجرد التامّ عن المادة ، وانفصال النفس عنها ؛ بذلك يتصل الانسان « بالعقل الأول » اللفظ الفلسفى للحق سبحانه ، وينال الغبطة التى يعبّر عنها المتصوفون بالفناء . لقد انتشرت هذه التعاليم الفلسفية فى العالم الاسلامى ، وكان أثرها فى الفلاسفة المسلمين واضحاً جلياً

د — *فلسفة المعرفة* Gnosticism : جماعة هذا النظام الفلسفى الذى نشأ بين القرنين الأول والسادس للمسيح يعتقدون أن الايمان وحده لا يكفى للخلاص ، بل إن المعرفة هى متممته . ويعنون بهذا أن يعرف المرء أنه من عنصر إلهى ، وأنه لابدّ أن يرجع فى نهايته إلى هذا العنصر الذى نشأ منه ، حينذاك وعند ما ينغمس فى هذا الاعتقاد تخلص نفسه من شوائب المادة ويقرب من الله . وقد انتشر هذا المذهب فى العراق وفارس وتأثر بالمانوية وأثر فيها فأخذت منه عقيدة الظلمة والنور . أما إنه أثر فى العقائد الصوفية فانا نلمس هذا فى القول بأن الانسان يُخلق إلهياً ، وكلما تقدم فى العمر خلع حجاباً إلهياً واستبدل به آخر إنسانياً إلى أن يمر بسبعين ألف حجاب فى أرذل العمر . ولا نجاة له إلاّ باتباع التعاليم الصوفية والانصراف عن المادة إلى الروح ، بذلك يسلك طريق النجاة

هذه أهم المؤثرات الخارجية التى عملت على تغذية العقيدة التصوفية الاسلامية وخلقت منها طريقاً فلسفياً خاصاً . وليس من المستطاع رد كل من العقائد التصوفية الفردية الى أصلها الذى استُمدت منه ، فعقيدة فى مثل هذا الانتشار العظيم ذات مبادىء كثيرة ونظم واسعة لا يمكن أن تقع تحت تأثير عامل واحد مهما جلّ شأنه واتفقت الظروف على تقدمته والميل اليه .

كانت الصوفية دائماً بحيرة تنتقى من كل العقائد ما تشتهى وتشاء . نظام شامل يمتص ويهضم — بعد بعض تغيير وتحوير — من كافة الآراء والمعتقدات المختلفة حوله ، يكتسب أناساً من كافة الملل والنحل من موحدين ومشركين ، معتزلة وسنيين ، فلاسفة ورجال دين . هذه الاعتبارات كلها تضعنا فى موقف دقيق يضطرنا الى القول بأن منشأ الصوفية الاسلامية الفلسفية لا يمكن أن يجاب عنه بجواب شاف مريح

(يتبع)

سليمان فارس الطحان